تجربة الحياة والموت في شعر أدونيس
(ديوان المسرح والمرايا)

محمد البكار
طالب باحث بسلك الدكتوراه
مختبر الديداكتيك واللغات والوسائط والدراماتورجيا
تحت إشراف: الدكتور امحمد واحميد
أستاذ التعليم العالي، كلية اللغات والآداب والفنون
جامعة ابن طفيل، القنيطرة
المغرب

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف عند إحدى التجارب الشعرية التي عرفها الشعر الحديث والمتمثلة في تجربة الحياة والموت لدى الشاعر أدونيس، حيث شكلت النكبة أهم عامل ساهم في ظهور تجربة شعرية جديدة استطاعت تجاوز البناء التقليدي للقصيدة الشعرية العربية القديمة واخترت شكلا جديدا عرف بالشعر الحر، أما من حيث المضمون فقد واكب هذا التغير في الشكل تغيرا في المضمون الشعري. وهذا ما سنحاول في هذه الدراسة أن نبينه من خلال تجربة الحياة والموت وكيف تمثلت لدى الشاعر أدونيس من خلال ديوان المسرح والمرايا.

The experience of life and death in the poetry of Adonis (Diwan of Theater and Mirrors)

Abstract:

This study aims to stand at one of the poetic experiences known to modern poetry, represented by the life and death experience of the poet Adonis, where the catastrophe constituted the most important factor that contributed to the emergence of a new poetic experience that was able to transcend the traditional structure of the ancient Arabic poetic poem and chose a new form known as free poetry. In terms of content, this change in form was accompanied by a change in poetic content. This is what we will try in this study to show through the experience of life and death and how it was represented by the poet Adonis through the theater and mirrors collection.

مقدمة

عرف الإبداع الشعري الحديث بعد النكبة التي هزت الأمة العربية، تغيرات على مستويات عدة غيرت من مجرى الكتابة الشعرية شكلا ومضمونا، فبعد أن برزت للوجود حركة شعرية جديدة سميت بالشعر الحر مع رائدتها الأولى نازك الملائكة وبدر شاكر السياب، اللذان كسرا رتابة القصيدة العربية القديمة، وتحطيم معماريتها التقليدية باعتماد أسلوب السطر الشعري، ستعرف سنة 1948 صدمة للوعي العربي إثر نكسة فلسطين التي تركت جرحا عميقا له، ودعته إلى إعادة النظر في وجوده، وفي محيطه، وفي كل ما يعيشه داخل هذا العالم الكبير، في هذا الصدد يقول الدكتور أحمد المجاطي "كانت هزيمة الجيوش العربية سنة 1948 مفاجأة من الأمة لنفسها، وفرصة لمواجهة ذاتها مواجهة صريحة بإعادة النظر في كل ما يحيط بها سواء أكان ثقافة أم سياسة أم علاقات اجتماعية"( ).[1]

1.العوامل المفسرة لظهور تجربة الحياة والموت:

كان لهزيمة 1948 وما خلفته وقع عميق لدى الأمة العربية، التي استوجبت وقفة تأمل وإعادة النظر في كل الجوانب الثقافية والسياسية والاجتماعية، وقد كان المجال الشعري واحد من هذه المجالات التي أعيد فيها النظر، ذلك أن الحداثة الشعرية تجلت على المستوى الشعري بشكل جلي، من خلال إحداث جملة من المتغيرات ومن تم وجد الشاعر نفسه ملزما بتغيير طريقته في الكتابة الشعرية بشكل ينسجم مع روح العصر، ويعبر عن ذاته ووجوده الذي لا ينفصل عن أمته. فحاول التجديد في المضامين الشعرية وكذلك في الشكل الشعري بالشكل الذي يتلاءم مع روح العصر ورغبته، وقد لعبت الثقافة دورا بالنسبة للشاعر في الغوص نحو مفاهيم جديدة، والتشرب من ميادين وثقافات أخرى من خلال التلاقح معها والانفتاح عليها، فلم يقف عند حدود الفكر والتاريخ والفلسفة، وإنما كان ملتهما لكل الجوانب الثقافية إذ "حتى الثقافة الشعبية كان لها مكانها في ذهنه، وأثرها في صوغ وجدانه، فقد قرأ سيرة عنترة وتعرف إلى أبي زيد الهلالي وسيف بن ذي زن وألف ليلة وليلة"(2).

فالشاعر الحديث شكل لنفسه ثقافة وفيرة مكنته من خوض غمار تجربة شعرية جديدة تنزح عن كل ما هو جامد وثابت، وبالتالي فك قيده عن تلك المفاهيم والقيم القديمة التي لطالما ظلت لصيقة به، وحاول أن يمتلك رؤية جديدة لهذا الواقع، وسعى نحو تغييره إلى وضع أفضل مما هو عليه.

وفي ظل احتدام هذا الكم الفكري والمعرفي لدى الشاعر الحديث، كان لزاما عليه أن يحتك به وأن يجعل هم أمته همه وسعادتها بسعادته، وذلك ما تجلى لدى شعراء كثر إثر نكسة فلسطين " فالحب والمرض والفرح والحزن، وغيرها من الموضوعات التي يمكن تصورها مستقلة متفردة، على نحو ما نعرف في ديوان الشعر العربي، قد صهرت في محرق النكبة، وأمدتها تجربة الشاعر وثقافته بمزيد من التوتر والقلق، واقتربت بها من الإحساس الممض، الذي يملأ ضمير الإنسان العربي في واقع الهزيمة "(3).

وبما أن الإبداع ينبثق من رحم المعاناة، فإن هذه النكبة جعلت الشاعر يبحث عن أشكال جديدة تساير روح العصر، ومن ثم ظهرت موضوعات ومضامين جديدة تعبر عن واقع الأمة الحضاري الذي عمه اليأس، وأصبح الكل ضائعا غريبا رغم أنه في وطنه وبين أحبابه لما خلفته هذه النكبة في نفوس كل من عاشها من أثر نفسي ملئه الخوف واليأس والضياع والموت، وهي كلها موضوعات انفتح عليها الشاعر الحديث وتمظهرت في أشعاره معبرة عن مضامين شعرية جديدة لما بات يعرف بالحداثة الشعرية، لذلك كان الشعراء الحداثيون في سنوات النكبة يعبرون عن ما يعيشه الواقع العربي من هموم وتشرد، محاولين إيجاد الخلاص من هذا المأزق الذي لم يأت، وتركها تئن في صمتها غير قادرة على النهوض والبعث. لذلك كان الشاعر العربي الحديث يجاهد نفسه معانقا هذه النكبة

بكل أبعادها السياسية، والاجتماعية، والنفسية وذلك من أجل البحث عن مضامين جديدة خصبة ومتطورة يمكن تجسيد بعض تجلياتها في تجربة الحياة والموت.

2. تجربة الحياة والموت:

تعتبر تجربة الحياة والموت امتدادا لتجربة الغربة والضياع، ولا يمكن الفصل بينها فكلاهما يعضد الآخر، والمتأمل في النكبة الفلسطينية سيجد أنها خلفت في الوعي العربي ضياعا وتمردا ويأسا، وهذا بدوره أدى بالشاعر إلى التأرجح بين الموت والحياة، فكانت الغربة في هذا الواقع متجسدة على مستوى الحاضر وما يعيشه الشاعر، في حين نجد أن تجربة الحياة والموت كانت نظرة من الشاعر نحو المستقبل واستشرافه في هذا الصدد يقول الدكتور أحمد المعداوي " فكما أثمر إيقاع اليأس في بعض الأحيان تجربة الغربة، فقد تجاوزها في بعض الأحيان الأخرى فأثمر تجربة الموت، ومن معاناة الشاعر لهذه التجربة، بدأت تتولد في أعماقه معاني الولادة والتجدد والبعث، يسندها من قبل إيقاع جديد هو إيقاع الأمل"(4).

أفهم من هذا القول أن اليأس الذي عانه الشاعر في ظل توالي النكبات التي عصفت بأمته جعلته يعيش حالة الغربة وفي معاناة الشاعر مع هذه الغربة أصبح إحساسه بالموت يزداد، لكنه كان يحاول أن يجد لنفسه مفرا من خلال تولد شعور التجدد والبعث رغبة في الحصول على حياة جديدة، من خلال إيمانه بجدلية عكسية قائمة على الموت والحياة لأن " الموت في حياتنا معبر نمر عليه إلى الحياة، لأنه لو كانت الموت موتا فحسب لكان السكون الأبدي هو منطق الحياة، والاستسلام للأمر الواقع هو النتيجة الحتمية لهذا المنطق"(5).

الموت هو طريق الشاعر نحو التخلص من الحياة الماضية حياة الغربة، وكذلك من أجل الانغماس والدخول في حياة جديدة، وهذا ما يشكل عند الشاعر التحول من خلال الانتقال من مرحلة إلى مرحلة؛ أي من الغربة والضياع والموت إلى الرغبة في الحياة والبعث من جديد والانتصار على الموت.

وقد شبه الدكتور أحمد المجاطي هذه التجربة بقوله "إن تجربة الموت والحياة في الشعر الحديث أقرب إلى فكرة الفداء عند المسيحيين، منها إلى فكرة التناسخ، والشاعر في ذلك أشبه ما يكون بالبطل أو النبي، أو هو على أقل تقدير، الإنسان العارف بأسرار الكلمة، القادر على حملها والسير بها عبر الأدغال والدهاليز، ليكسب إكسيرها المقدس في قلوب الناس وضمائرهم، فتكون اليقظة ويكون البعث، ويكون التجدد"(6).

وقد كان الشاعر الحديث وهو يترقب حال الأمة وهي تنهار، يبحث عن وسيلة يحيي بها أمته ويستنهض قواها، من خلال التفكير في بعثها وولادتها من جديد وقد اتضح له أن هذا البعث لن يتم إلا من خلال الاستعانة بمجموعة من الأساطير والرموز التي لها علاقة وطيدة بالذات الإنسانية عسى أن تحرك شعور الأمة وتوقظها من سبتها العميق، حيث نهل من الثقافات كلها وأخذ من الأساطير اليونانية والبابلية والفنيقية والعربية، وعمل على توظيفها أحسن توظيف حتى تكون مؤثرة، حيث عبر بأسطورة تموز وعشتار وأسطورة أورفيوس وأسطورة الفينيق وأسطورة الخضر وأسطورة نادر الأسود وأسطورة مهيار والسندباد، وإلى غير ذلك من الأساطير الكثيرة التي عبر بها.

3. أدونيس وتجربة الحياة والموت

أجد شعراء كثر ممن تمثلت في شعرهم تجربة الموت والحياة، من بينهم بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وخليل حاوي وشاعر الحداثة الشعرية كما يسميه الكل أدونيس، لذلك ولضيق المجال المخصص لهذا المبحث فإنني سأعتمد في دراستي التطبيقية لهذه التجربة على شاعر واحد من هؤلاء الأربعة، وقد وقع اختياري على أدونيس الذي سأحاول دراسة تجربة التحول عبر الحياة

والموت في بعض قصائده الشعرية التي اخترتها من ديوان "المسرح والمرايا"، ولم يكن هذا الاختيار عبثا أو من فراغ، وإنما راجع لمعرفتي بمدى تجلي هذه التجربة بشكل جلي في هذا الديوان، وذلك ما يؤكده الدكتور أحمد المجاطي بقوله " فإن ما يهمنا من تجربته مع الموت والحياة، هو الأشعار التي التقت فيها ذات الشاعر بذات أمته العربية، فأصبح في موتها وفي بعثها، موت الشاعر وبعثه، وقد توزع هذه الأشعار ديوانا أدونيس الآخيران، « كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل » و « المسرح والمرايا » "(7).

يعد ديوان المسرح والمرايا واحد من بين الدواوين الشعرية التي ألفها أدونيس كما سبق وأن أشرت وهو يتضمن العديد من القصائد الشعرية التي تعبر عن مضامين مختلفة تبوح بها ذات الشاعر، والتي وجدت لتجربة الحياة والموت مكانا لها. المتأمل في هذه التجربة التي عبر عنها أدونيس يجد أنها صادرة "عن ذات محتقنة بفحولة التاريخ العربي، وفي واقع يفتقر إلى الفحولة والخصب"(8) ، وذلك ما عبر عنه في قصيدته اللؤلؤة بقوله:

كيف أمشي نحو شعبي، نحو نفسي

كيف أمضي نحو تهيامي وصوتي، كيف أصعد؟

لست إلا نهرا

حاضنا لؤلؤة الشعر

وإلا حلما

أني ضوء

سائح في جسد الليل،

وأني جامح أحتضن الأرض كأنثى

وأنام

موقظا حبي فيها

لهبا يفتح،

يستنزل فيها

آية،

أني كتاب

ودمي حبر

وأعضائي كلام.

كيف أمشي نحو نفسي، نحو شعبي

ودمي نار وتاريخي ركام

أسندوا صدري ـ

في صدري حريق

ومسافات

وأجساد عصور تتجرجر

والتواريخ مرايا

والحضارات مرايا

تتكسر.

لا، دعوني:

إنني أسمع أصواتا تغني في رمادي

إنني ألمحها تمشي كأطفال بلادي"(9).

يستهل أدونيس قصيدته هذه بالتساؤل، والسؤال شرط أساسي في العملية الشعرية إذ يشكل بالنسبة له الحياة، فهو يسأل وعيه محاولا أن يستنهضه وأن يجعله يقاوم من أجل الحياة، إذ لم يجد من سبيل نحو المشي إلى شعبه وإلى نفسه حيث أصابه اليأس والضياع ولم يعد عارفا أي مسلك يسلك في سبيل الخروج من هذه الحيرة، ويعبر لشعبه بصوته ويصعد إليه موقظا إياه من سباته الذي دام حتى خلخلت النكبة كيانه، فهو يستعير لنفسه كلمة النهر وهي دلالة على الجريان وعدم التوقف ومياهه دوما في تجدد يحضن لؤلؤة الشعر الذي هو سبيله في الخلاص، واعتبره لؤلؤة ذلك لأنها باهظة الثمن، والشعر بالنسبة له لؤلؤة العصر لما له من قيمة في تحريك الشعور العربي القومي والزج به نحو الوعي وتنويره، وكذلك يضيف أدونيس أنه حلم يسعى إلى تحقيق ذاته في الواقع وضوء يسيح في جسد الليل، وهي عبارة استعارية إذ أعطى لليل صفة الإنسان وهذه دلالة على سواد الوعي الإنساني خلال تلك المرحلة التي يتحدث عنها أدونيس، ذلك أن الليل في عرفنا دامس مظلم وأن أدونيس هو الضوء الذي يحاول أن ينير طريق هذا الليل. مستعص ولا يمكن إيقافه محتضن الأرض ومشبها إياها بالأنثى دلالة على حبه للوطن، والرغبة في التضحية من أجلها نائما وموقظا هذا الحب فيها، جاعلا إياها تستشعره كأنه لهب في دفئه وحره وتاركا فيها بصمة أنه من أجلها سيكون كتاب حبره دمه وكلامه أعضائه.

هذا يدل على أن الشاعر لم يتخلى عن وطنه في أيام النكبة، وإنما هو فارح بفرحها وحزين بحزنها وعموما فحاله يتغير بتغير حالها. ثم يجدد الشاعر السؤال، لكن هذه المرة يسأل نفسه أولا ثم يسأل الشعب ويرى أن دمه نار وتاريخه ركام فهو يحترق من جراء الاجتياح الذي أصاب الأمة العربية مع توالي النكبات والنكسات، ويعاني وهو يشاهد تاريخ بلاده وحضارتها تتهدم وقد أصبحت ركاما بعد الغزو والضمار والخراب الذي خلفته نكبة سنة 1948 في وعي الأمة كافة وليس الشاعر وحده، لذلك لجأ إلى مخاطبتهم أن صدره لا يقدر على تحمل هذا الحريق، وإنما يحز في نفسه أن يقف مكتوف الأيدي ناظرا إلى العصور وهي تتجرجر في واقع مرير عصف بالبلاد العربية إلى الذل والضعف، حتى صارت الحضارات والتواريخ كالمرايا تتكسر والإنكسار يدل على الضعف والاستسلام إلى واقع الحال لكن الشاعر لم يسيطر عليه اليأس رغم هذا الوضع، وإنما ظل متشبثا ولو ببصيص من الأمل رغبة في البعث وإحياء هذه الحضارة.

إذ يقول وهو رافض الاستسلام لهذا الانكسار المفضي إلى الموت "دعوني" لأنه لازالت هناك أصوات تغني في رماد بلاده وهو لامح إيها تمشي كأطفال بلاده. هذا يدل لنا على أن أدونيس يجسد في شعره موضوع التحول من الموت إلى الحياة، حيث لم ييأس

بل لازال صوت الأمل يغني في هذا الرماد الذي سيبعث من جديد ويعطي للحضارة الحياة وهي أصوات شبهها الشاعر بأطفال بلاده أتية من بعيد لكن الأمل معها قائم.

من هنا نستنتج أن تجربة الحياة والموت عند أدونيس تجربة عمها اليأس والأمل الأول بسبب الانكسار والثاني من خلال الرغبة في البعث وتجديد الحياة بعد هذا الانكسار. وقد عبر أحمد المعداوي المجاطي عن هذه التجربة بقوله "هذا النوع من الوعي بالتميز في علاقة الشاعر بالواقع الحضاري المنهار، هو الذي جعل معاني الحياة والموت في شعره تسير في اتجاهين متكاملين، ينطلق الاتجاه الأول من الحيرة والتساؤل، والبحث عن وسيلة للبعث، وينطلق الاتجاه الآخر من اكتشاف مفهوم التحول، بصفته وسيلة لدفع الواقع العربي نحو البعث والتجدد"(10). لذلك فإننا سنعمل على توضيح هذين الاتجاهين كلهما على حدة من خلال تدعيمهما بقصائد شعرية من ديوان أدونيس "المسرح والمرايا".

1.3. الاتجاه الأول: الحيرة والتساؤل.

وهو مسار يبحث فيه الشاعر عن وسيلة للبعث من خلال التساؤل الذي كان سبيله أمام هذه الحيرة التي ظل فيها لذلك يقول أدونيس في قصيدة مرآة للنوم:

"ألبطلُ السّاهرُ مثلَ موجةٍ

ينامْ

وأرضنا صبيَّةٌ

كانت بلا رأسٍ ولا وسادةٍ تَنامْ

والفكرة الفرَّاسة الحمراء

كانَتْ جثة تنامْ

يا رَمَدَ الأعضاء يا مسالك الرطوبةْ

في جسدي ـ في جسد العروبةْ

من أين، كيف أوقظُ النيامْ؟ "(11).

انطلاقا من هذه الأسطر الشعرية يتضح أن الشاعر يسأل البطل الساهر الذي سيخلص هذه الأرض هل ينام مثل الموجة ؟ فالنوم عند الشاعر له دلالة أخرى غير تلك الدلالة الحقيقية المعروفة، إذ هو في مخياله دلالة على الموت فبعد أن نامت الأرض التي شبهها بالصبية دون وسادة ونامت الفكرة حتى صارت جثة.

يلجأ الشاعر إلى المناداة وهي وسيلة الشاعر في إيقاظ هؤلاء النيام من سباتهم العميق، وهذا يدل أن الشاعر كان هو البطل الساهر على هذه الأرض، وكان نومه كالموجة طفيفا وسرعان ما يهيج لأنه الأمل الوحيد من أجل بعث الحياة والتجدد. وفي قصيدة أخرى بعنوان "مرآة الرأس" يبين أدونيس مدى قوة تجربة الموت في شعره إذ يقول في هذه القصيدة :

"(ـ سايرته، رصدته

غلغلت في جفونه

أيقظت كل شهوتي هجمت واحترزته

وجئت.

كانت زوجتي نوارْ

تفتحُ باب الدار:

ـ أوحشتني، أطلت، كيفَ؟

ـ أبشري،

جئتكِ بالدهر، بمال الدّهر

ـ من أين؟ كيف، أينْ؟

ـ برأسه...

ـ الحسينْ؟

ويلك، يوم الحشرْ

ويلك لن يجمعني طريق أو حلم أو نوم

إليك، بعد اليوم...)

وهاجَرْت نَوارْ"(12).

ويتجلى البحث في شعر أدونيس تجليا واضحا في قصيدة الرأس والنهر، والمتأمل في هذه القصيدة يجد وكأنها مسرحية نظرا لاعتمادها الحوار بين الشخصيات، لكنها ليست كذلك لكونها مفتقرة لجملة من العناصر التي تؤثث العمل المسرحي وتعطي له طابعه، وهي تتخذ من جسر قديم على ضفة نهر مبنى الأحداث حيث يوجد أشخاص مشوهون منهم شباب وشيوخ ونساء، وتستهل القصيدة بالحديث عن الحرب بين شيخ وشاب :

شيخ (بصوت ضعيف)

ألحرب زربيهْ

غنمٌ...

شيخ (بنبرة من يمزح)

قالوا

إن الحرب حقيبهْ

(يصمت. يتابع بشيء من الجد)

لو أن الحرب حقيبهْ

لملأناها

خرزًا

وجلسنا فيها

وَصبرنا...

شاب (يظن نفسه كان جنديا)

قالوا إن الحرب وسادةْ "(13).

يستهل الشاعر قصيدته بكلمة الحرب ويضفي عليها صفة زريبة الغنم لما لها من دلالة على الخراب والدمار الذي تخلفه، كذلك الشيء نفسه بالنسبة لزريبة الغنم التي تصير متسخة ومبعثرة بالرائحة الكريهة، وكذلك بالغبار والبقايا التي تخلفها فكذلك هي الحرب عند الشاعر على شكل زريبة فيجيب الشيخ بنبر يطبعها المزح أنها حقيبة، ثم يتدخل شاب فيصف الحرب بصفة أخرى هي أنها وسادة، والوسادة هي الأخرى توحي بالنوم والنوم قلنا أنه هو الموت مما يدل أن الشاعر ربط في قصيدته بين الحرب والموت في صورة شعرية رائعة ويضيف الشيخ قائلا (بنبرة حكيمة):

"الحرب وسادةْ

للموتِ

وعادَةْ

(صمت. يتابع بلهجة غاضبة)

هذا الوطنُ

زرعٌ

والأيامُ جرادةْ"(14).

إذن فالموت غالب على الحياة ومنتصر عليها لأنه زمن الحرب، ومن ثم تصير الأرض رغم ما بها من زرع وخضر يابسة وأرض خراب وكأن جيوشا من الجراد ألحقت بها ولم تترك فيها شيئا، وبهذا بدأ إحساس الشاعر باليأس يزداد وبذلك سيكون مضطرا للبحث عن كيفية البعث وتجديد الحياة في الأرض، لذلك يقول في مقطع آخر من قصيدة الزمن المكسور حيث جوقة غير منظورة:

" سيجيءُ السيلْ

قبل حلول اللّيل"(15).

وبالتالي فبحث الشاعر كان جادا في البعث وإعادة الحياة، من خلال التبشير بمجيء السيل، الذي يرمز إلى الانبعاث من جديد وإحياء الأرض، ورافضا ذلك الموت الذي يأتي رامزا له بالليل، حيث أن هذا السيل سيحل قبل الليل، وبالتالي ستعود الحياة ويبقى الأمل حاضرا قبل حلول الليل. ثم ينتقل الشاعر لكي يحيي أمل الانبعاث والحياة من خلال كلام الراعي الذي يحمل نايه فيقول بلهجة طبيعية:

"حلمت أن رأسا

في النّهر"(16).

إذن فالراعي سيكون هو من يتنبأ بمجيء الرأس في النهر، وهو يعني رأس الحسين والنهر يرمز للخصب والموت والعودة من أجل الانبعاث، لذلك فموته هي وسيلة للشاعر كي يعيد حياة جديدة وتنتهي معه الموت. ثم تسأل امرأة هذا الراعي المبشر بقولها:

"امرأة 1: هل سمعته يغني

كرأس أورفيوسْ

تذكر أورفيوسْ

الراعي (بلهجة واثقة):

سمعته يقولْ:

في البدء كان النهرْ

كان حطام الزمن المكسورْ

يصهر في تنورْ

من غضب الأمواج، كان الجمرْ..."(17).

في هذه الأسطر الشعرية، ألاحظ أن الشاعر يقحم أسطورة أورفيوس وهو يغني، وهو رمز يدل على " ذلك الفنان الذي استطاع بأنغامه العلوية، أن يرقق قلوب الوحوش الآلهة، حتى سمحوا له بإخراج حبيبته أوريديس من براثين الجحيم، فأصبح بذلك رمزا لقدرة الفن على قهر الموت"(18). فأدونيس حاول أن يجعل من هذه الأسطورة قوة للتغلب على الموت، وبالتالي فهو بشعره أيضا قادر لإعادة الحياة لهذا الوجود الذي عمه اليأس مادام الفن قهر الموت.

3. 2. الاتجاه الثاني: مسار التحول.

بعد ذلك سينتقل أدونيس إلى مسار جديد، هو مسار التحول وهو الاتجاه الثاني الذي طبع شعره حيث سيتحول من وجود كان قائما إلى وجود آخر سيحل محله؛ أي أن البعث سيصير سبيل الشاعر في التحول، لذلك فإنه سيلجأ إلى توظيف العديد من الأبعاد الأسطورية التي تعطي نظرة جديدة للحياة من خلال الخيال، واستحضار بعض الآلهة القديمة وهي بهذا تعبر عن وعي جماعي لفئة من الناس وليست وليدة فرد معين. ويتمثل التحول في قصيدة السبيل حيث يخاطب الراعي الجميع قائلا:

" ابتعدوا،

تحرّكوا،

فالسيلْ

الصوت (مقاطعا):

سوف يجيء السيل

قبل حلول الليلْ...

الجوقة (غير منظورة)

نعرف، هذا زمن السّيول

نعرف، هذا زمن الأفولِ"(19).

إذن فالشاعر في هذه القصيدة يقصد أن نبوءة الجوقة تتحقق، حيث يحذر الراعي الجميع ويدعوهم إلى الابتعاد والتحرك، لأن السيل آت وكان أول من شاهد مجيئه الراعي، فتجيبه الجوقة بأنه زمن السيول أي زمن التحول والأفول الذي سيعيد الانبعاث بعد مجيئه، ومن ثم تقول الجوقة وهي متشبثة بالرغبة في الموت من أجل إعادة الحياة:

" صوت من الماء، يقول الصّوت:

مات

لكي ينهي عهد الموتْ "(20).

إذن تظل الجدلية قائمة بين الموت وإرادة الحياة حيث ترفض الجوقة الموت الأبدي الكلي، وتعتبر أن موت الحسين الذي جاء النهر برأسه هي دلالة على تضحيته من أجل إعطاء الحياة، وما تكرر الصوت من الماء إلا دلالة التغلب على الموت والانتصار عليه، حيث سيكون موت الحسين فداءا للأمة من أجل أن تنتهي معه الموت ويحظى العالم بحياة أبدية. وكذلك يتجلى التحول في مجموعة من القصائد من بينها قصيدة تيمور ومهيار، وهي قصيدة ذات بعد أسطوري إذ تستهل القصيدة بخروج تيمور ومعه حراس مسلحون فيقول وهو غاضب:

تيمور (بغضب):

هاتُوه هاتُوا حمام البركان، هاتوا نَهمَ الضِّباعِ

لُفّوهُ بالجردان والأفاعي

هاتوهْ واسْحقوهُ

(تنصب خشبة تغطيها أمشاط الحديد. يمدد عليها مهيار. يربط، يجلد حتى يقطع لحمه. يسمر رأسه بمياميز حميت في النار. يؤخذ إلى السجن. يبطح على وجهه. توضع أسطونة من الحجر على ظهره. تقيد بالحديد يداه ورجلاه).

إن المتأمل في هذه القصيدة، يدرك منذ الوهلة الأولى أنها ذات بعد أسطوري قائم بين تيمور ومهيار، فالأول يرمز للظلم والاستعباد والقهر والموت، وذلك ما نلحظه جليا في مدى قساوته حيث ألقى مهيار في السجن ولفه بالأفاعي والجردان ولم يشفق عليه، وتجلى ظلمه أيضا في جعل مهيار يمدد على أمشاط الحديد ويقطع جلده من شدة الجلد، ويستعبده من خلال تقييد يديه ورجليه بالحديد. أما مهيار فهو ذاك الرمز الذي تنبعث معه الحياة، ولكنه يصطدم بواقع مرير يقهره ويستعبده، لكن تيمور هذا المستبد يتفجأ حينما يجد أن مهيار قد خرج من السجن دون أن يطلق سراحه فيقول تيمور:

" ألم تكن في السجن؟ كيف جئتَ؟

انْسللتَ من شقوقِه؟ هدمتَه؟ أخرجك السّجّانْ؟

مهيار أخرجني سُلطانْ

كالشّمس لا يموتُ،

كالإنسانْ

(يمدد بين خشبتين. يقطع رأسه. يقطع جسده إلى أجزاء صغيرة ترمى في جبِّ للأسود لا تأكلها، بل تنحني وتبتعد عنها)"(21).

تبرز هذه القصيدة مدى دهشة تيمور وتفاجئه بوجود مهيار في المجلس الذي يوجد فيه، ويسأله عن كيفية خروجه من السجن بعد كل العذاب والقهر الذي مارسه عليه الحراس من جلد ورمي بحمم البركان، ويتعجب من القوة التي أخرج بها مهيار هل هو مكر السجان الذي أخرجه أم أنه هدم السجن فلم يعد يستوعب ما يرى أمامه، ثم يجيبه مهيار وهو رمز للشعب الذي يسعى إلى نشد الحرية والانفكاك من وطأة الاستبداد والظلم أن الذي أخرجه هو السلطان، وفي هذا الصدد يوضح الدكتور أحمد المجاطي هذا المعنى بقوله "هذا السلطان الذي أخرج مهيار من السجن هو التحول، فالتحول هو قانون الحياة، إنه ليس خاصا بالإنسان الذي يموت هنا، فتنبت زهرة على الضفة الأخرى، بل يخص كذلك الشمس التي تغرب هنا فتشرق في الجانب الآخر من الأرض، ويخص الأشجار التي تتجدد بالنسغ، والأنهار التي تتجدد بالتيارات المائية، التي تصل النبع بالمصب، وبعض الأفلاك التي تحفظ حياتها بالإيقاع "(22).

إذن فالتحول هو الذي أخرج مهيار من السجن وجعله ينعم بالحرية رافضا الظلم والعذاب، لأن القانون الذي يحكم الحياة الإنسانية مبني على عدم الثبات والجماد، وإنما التغيير والتحول فالشمس تشرق في الصباح لتتحول في المساء إلى الغروب وتشرق في جهة أخرى وهكذا هي الحياة لا تقف عند حدود الظلم، وإنما لا بد وأن تتحول إلى تحقيق العدل والعدالة، لكن تجبر تيمور وقساوته تجعله لا يقتنع بهذه الأمور وبجدلية الموت والحياة وإنما صار نحو مهيار ومدده وقطع رأسه وجزّأ جسده ورمى بها في جبّ الأسود حتى لا يعود، وظن أنه قد تخلص من مهيار، لكن يفاجأ الناس بعودة مهيار حيث يقول الشاعر في الفقرة الثالثة:

"أصوات شبيههُ. كأنه مهيارْ

يعودُ، كيف عادْ

يا سيّدَ الأسرارْ

يا ساحرَ البلادِ كيف عاد؟

تيمور: شبيهه؟ مهيارْ...

أمواتُ، كلُّ خلجةٍ طاعونْ

أموات... كل عضْوٍ يفرّ في ثيابي،

يدور كالمجنونْ

مهيارُ؟ عاد، أين... أين ساحرُ البلادْ

ماذا ترى؟ رأيت؟ كيف؟ "(23).

أستنتج أن الأصوات تتعالى ويتفاجؤون بعودة مهيار بعد أن قطع جسده وتصاب الناس بالحيرة مستغربين في وجوده، ومن ثم يبدأ التساؤل عن كيف استطاع العودة فيستنجدون بساحر البلاد عسى أن يجد لهم الحل، ويذهل تيمور وهو يحس بالموت تطعن

فيه حتى صارت أعضائه تفر من ثيابه وعاد كالمجنون لم يصدق ما رأى ومستنجدا هو الآخر بالساحر ليفسر له كيف عاد مهيار. فيقول الساحر:

"الساحر: ... ثوراً

أريد ثوراً أسود الجبين والقَرنين،

تحت فكّهِ السّفليّ شامتان،

لكي أرى الآتي كما يراني...

تيمور: أخْرجْهُ من قميصهِ...

الساحر: أمسحُهُ !

تيمور: جرادةً، أو نملة عرجاءَ، أو حرباءْ...

الساحر: مُرْ لي بكأس ماءْ..."(24).

ولما حضر الساحر طلب من تيمور كي يفك لغز عودة مهيار أن يأتيه بثور له مواصفات محددة، فأتاه بذلك وطلب تيمور الساحر أن يمسخ مهيار إلى إحدى الجرادات أو النملة العرجاء، ولما لم يجد إلى ذلك سبيل عاد الساحر فطلب من تيمور أن يمده بكأس ماء ليمارس طقوسه السحرية فنفت في أذن الثور فصار ثورين، وأخذ بذر حرثه وزرع الزرع وحصد وطحن وعجن وخبز أكل في ساعة واحدة، ثم أخذ كأس الماء ونفث فيه ومده لمهيار ليشربه كله ففعل.

ثم قال " الساحر (لمهيار):

ماذا تحس الآن؟

مهيار: كل جزءٍ

في جسدي ينبوعْ

(يبتسم. صمت.)

واشتدت الحياة في عروقي...

الساحر: (إلى تيمور بيأس)

كأنه طينةٍ

مجهولة الفروع والأصول ـ أنتَ نارٌ

في الأرض، وهو نارٌ في الأرض والسماءِ

وهو النَّفَسُ المزروعْ

في رئةِ الحياةِ...

تيمور (بغضب الوحش):

إن سيفي

أحدُّ

إنّ فتكي

أشدّ... لن ينهض بعد الآنْ ـ

أنا هو الجحيمُ والديّان"(25).

ولم تفلح خطط الساحر في مسخ مهيار أو قتله، وإنما كان إحساسه بالحياة يتزايد ويستشعر أن جسده ينبوع مبتسما وأن روح الحياة تشتد في عروقه، وبذلك يصاب الساحر بالخيبة ولم يجد مبررا فيصارح تيمور أنه عجز في التغلب عليه، لأن صلبه من طين لم يعرف أصله ولا فرعه ويصارحه أن مهيار نار في الأرض والسماء وأن نفسه مزروعة في رئة الحياة التي ترفض الموت، ويظل السؤال كيف أن مهيار استطاع التغلب على تيمور والساحر؟ وبالتالي انتصر الخير على قوة الشر، وقد زادت قوة مهيار من غضب تيمور الذي لم يستسلم واعتبر أن مهيار لن يصمد أمام حدة السيف، ولن ينهض بعد ذلك حيث سيدبر له مقلبا "يصنع من النحاس تمثالا مجوفا بشكل ثور يحشوه نفطاً ورصاصاً وكبريتاً وزرنيخاً. يدخل مهيار في جوفه. يشعل فيه النار. يلتهب وينصهر ويتحول كل شيء إلى رماد "(26). وتكون النتيجة في الأخير كما يرويها الراوي:

وقيل صارت تمطر السماءْ

ناراً على المدينةِ. اسْتُذِلّتْ

فانسحقت واحترقَتْ،

وبقيتْ زماناً

يخرج من أنقاضِها دخانٌ

يشمه الناس فيسقطونْ

موتى

ومهيارُ دمٌ وماءْ

والأرض مثل وجههِ،

تبدأ، مثل صوتِه..

والناس يولدونْ..."(27).

ويخلص الشاعر في الأخير إلى أن الأرض سوف تحترق بالنار، وينبعث منها دخان ويصير كل من يشمه يموت، وسيكون مهيار هو ذاك الرماد الذي سيحيي هذه الأرض ويولد الناس، وبذلك يبرز الشاعر كيف أن قوة الخير المتمثلة في مهيار تنتصر على قوة الشر التي يمثلها تيمور المستبد الظالم الذي تجبر في الأرض ومنع مهيار من عيش الحياة بحرية، لذلك فإن هذا يدل على علاقة أخرى طرفاها الحاكم والشعب، فالأول هو تيمور، والثاني هو مهيار الذي يسعى إلى تحقيق أحلامه ويناضل من أجلها، لكن صوته لا

يكاد يصل ويقمع من طرف هذا الحاكم، وقد يوحي أيضا رمز مهيار إلى الأمة العربية التي تحاول التخلص من قبضة الاستعمار، لكن تسلط الغزو الغربي يمنع كل محاولة تحاول الخروج عن سلطتها.

خاتمة

وختاما فقد عملت على إبراز كيف حاول أدونيس من خلال ديوان المسرح والمرايا أن يصور تجربة الموت والحياة في قالب شعري معتمدا بعدا أسطوريا، ومستوحيا أشخاص غير حقيقيين لهم دلالة في الثقافات الأخرى، وفي هذا الصدد يعلل أحمد المجاطي عن سبب نجاح فكرة التحول في شعر أدونيس بقوله " إن نجاح فكرة التحول في هذه القصيدة يرجع إلى عاملين اثنين: أحدهما استيحاؤها، بطريقة غير مباشرة أسطورة الفينيق الذي حرق نفسه لكي ينبعث الربيع من رماده، وأسطورة العنقاء التي تموت فيلتهب رمادها، فتحيى ثانية"(28).

وهكذا استطاع أدونيس تصوير تجربته الشعرية عبر الانتقال من الموت إلى الحياة، والذي ساعده في ذلك هو توظيف مجموعة من الرموز الأسطورية، من خلال الفينيق الذي يحرق ويموت ومن ثم يبعث رماده من أجل إحياء الربيع والحياة معا، وكذلك العنقاء التي تموت فيلتهب رمادها وتحيى من جديد وهو الأمر نفسه بالنسبة لمهيار الذي يرمز للحياة ومتشبث بها رغم الصعاب التي تواجهه، لذلك يضيف أحمد المجاطي بقوله " والعامل الآخر هو المضمون الرمزي للقصيدة، لأن مهيار يرمز إلى إرادة الحياة لدى الأمة، ومثل هذه الإرادة لا يمكن أن يقهرها سلطان، وسواء أكان سلطان تيمور، أم سلطان غيره، أم كان هذا السلطان هو الموت نفسه "(29). ومن ثم يكون أدونيس قد عبر عن واقع الأمة العربية المنهار محاولا بعثه من جديد وإعطاءه حياة جديدة.

الهوامش:

[1] أحمد المعداوي المجاطي: (ظاهرة الشعر الحديث). شركة النشر والتوزيع المدارس الدار البيضاء، الطبعة الثانية 1428هـ/2007م. ص:56.

[2]- المرجع نفسه، ص:58.

[3]- أحمد المعداوي المجاطي: (ظاهرة الشعر الحديث). مرجع سابق، ص:61.

[4]- المرجع نفسه، ص:108.

[5]- المرجع نفسه، ص ص:110-111.

[6]- أحمد المعداوي المجاطي: (ظاهرة الشعر الحديث). مرجع سابق، ص ص:113-114.

[7]- المرجع نفسه، ص:118.

[8]- المرجع نفسه، ص:118.

[9]- أدونيس: (ديوان المسرح والمرايا). مرجع سابق، ص:241-242.

[10]- أحمد المعداوي المجاطي: (ظاهرة الشعر الحديث). مرجع سابق، ص:119.

[11]- أدونيس: (ديوان المسرح والمرايا). مرجع سابق، ص :169.

[12]- أدونيس: (ديوان المسرح والمرايا). مرجع سابق، ص:83.

[13]- المرجع نفسه، ص ص: 93-94.

[14]- أدونيس: (ديوان المسرح والمرايا). مرجع سابق، ص94.

[15]- المرجع نفسه، ص:95.

[16] - أدونيس: (ديوان المسرح والمرايا). مرجع سابق، ص :96.

[17]- المرجع نفسه، ص:96.

[18]- أحمد المعداوي المجاطي: (ظاهرة الشعر الحديث). مرجع سابق، ص ص:114-115.

[19]- أدونيس: (ديوان المسرح والمرايا). مرجع سابق، ص:103.

[20]- أدونيس: (ديوان المسرح والمرايا). مرجع سابق، ص:109.

[21]- أدونيس: (ديوان المسرح والمرايا). مرجع سابق، ص ص:47-48.

[22]- أحمد المعداوي المجاطي: (ظاهرة الشعر الحديث). مرجع سابق، ص:124.

[23]- أدونيس: (ديوان المسرح والمرايا). مرجع سابق، ص:48.

[24]- المرجع نفسه، ص:48-49.

[25]- أدونيس: (ديوان المسرح والمرايا). مرجع سابق، ص ص:49-50.

[26]- أدونيس: (ديوان المسرح والمرايا). مرجع سابق، ص:50.

[27]- المرجع نفسه، ص ص:50-51.

[28]- أحمد المجاطي المعداوي: (ظاهرة الشعر الحديث). مرجع سابق، ص:126.

[29]- المرجع نفسه، ص:126.